الحجاج في كتاب المعيار والموازنة في فضائل علي بن أبي طالب للإسكافي: دراسة تداولية

Argumentation in Al-Iskafi's Book Al-Mi'yar wa Al-Muwazanah fi Fadhai'l Ali bin Abi Talib: A Pragmatic Study

د. ناجح جابر جخيور الميالي: قسم اللغة العربية، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة المثنى، العراق.

أ. زينب نعيم حمزة: قسم اللغة العربية، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة المثنى، العراق.

Prof. Dr. Najeh Jaber Jakhyour Al-Mayali: Department of Arabic Language, Faculty of Education for Humanities, Al-Muthanna University, Iraq.

Zainab Naeem Hamza: Department of Arabic Language, Faculty of Education for Humanities, Al-Muthanna University, Iraq.

DOI: https://doi.org/10.56989/benkj.v5i5.1456

تاريخ الاستلام: 2025-01-05 تاريخ القبول: 2025-02-15 تاريخ النشر 2025-04-01

الملخص:

هدفت الدراسة إلى الوقوف على الحجاج والسلم الحجاجي في كتاب المعيار والموازنة، وإبراز الدور الدلالي للنصوص المستندة إلى علاقات الحجاج، فالحجاج يبني حلقات تفاعل راسخة الأثر في المتلقي. واستندت الدراسة إلى المنهج التداولي في تداول مادته بين المرسل والمرسل إليه، وتوصلت إلى مجموعة من النتائج أبرزها أن لغة الحجاج متينة واضحة، وقصدية الدلالة، لأن هدفها الإقناع، فقد قام الحجاج على علاقات مبنية بوساطة أدوات تعبيرية منها: الشرط والقصر والتكرار والتعليل والربط، ونجد تعدد قوانين السلم الحجاجي، وهي قانون الخفض: أي إذا صدق القول في مراتب معينة من السلم فإن نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها، وقانون النفي: إذا كان قولٌ ما مستخدماً من قبل متكلم ما له نتيجة معينة، فإن نفيه سيكون حجة لصالح النتيجة المضادة، وقانون القلب: نفي أي درجة أو دليل في السلم لا يستلزم نفي ما يقع في المرتبة التي تعلوه. وأوصت الدراسة بضرورة الإكثار من القراءات الجديدة حول الناس القدوة، ومنهم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام؛ بهدف إبراز روعة فضائله للاقتداء بها، ومن التوصيات تطبيق المناهج التداولية الحديثة على الأدب العربي لإثبات مرونة اللغة العربية وقدرتها على الاستمرار، ومواكبة التطورات الحضارية المختلفة.

الكلمات المفتاحية: الحجاج، التداولية، الخطاب، كتاب المعيار والموازنة، فضائل علي بن أبي طالب

Abstract:

The study aimed to examine argumentation and the argumentative scale in the book "Al-Mi'yar wa Al-Muwazanah" (The Standard and Balance), highlighting the semantic role of texts based on argumentative relationships. Argumentation builds strong interactional links with the recipient. The study relied on the pragmatic approach to the exchange of its material between the sender and the addressee. It reached a set of conclusions, most notably that the language of argumentation is robust, clear, and intentional, as its goal is persuasion. Argumentation is based on relationships constructed through expressive tools, including: conditional, restriction, repetition, justification, and connection. We find multiple rules of the argumentative scale, including the law of reduction: if a statement is true at certain levels of the scale, then its opposite is true at levels below it. The law of negation: if a statement used by a speaker has a specific outcome, its negation will be an argument in favor of the opposite outcome. The law of the heart: denying any degree or evidence on the ladder does not entail denying the rank above it. The study recommended encouraging more new readings about exemplary people, including Imam Ali ibn Abi Talib (peace be upon him), with the aim of highlighting his magnificent virtues for emulation. Among the recommendations is the application of modern pragmatic approaches to Arabic literature to demonstrate the flexibility of the Arabic language and its ability to endure and keep pace with various civilizational developments.

Keywords: Argumentation, pragmatics, virtues, discourse, Ali bin Abi Talib

المقدمة:

تعدّ دراسة اللغة في حيّز الاستعمال بعيداً عن قواعد الوضع اللغوي المجرد الحقلَ اللساني (التداولية Pragmatics) الذي بدأ يتشكل في أواخر القرن العشرين، ويهتم بالوظيفة التواصلية للغة، أي دراسة الظواهر اللغوية مرتبطة بسياق ورودها بهدف وصفها، تفسيرها والتوقف على غايات مستعمليها، ومن تلك الظواهر الحجاج الذي كان – في كتاب المعيار والموازنة في فضائل الإمام علي بن أبي طالب للإسكافي – محور دراسة تداولية.

فالحجاج لم يكن عنواناً عابراً في الدرس التداولي الحديث، لذا بُنيت الدراسة على مشكلة أساسية هي الكشف عن المواضع التي برز بها، والبحث عن مقاصد هذا الحجاج في نصوص المعيار والموازنة وفقاً لمنحى التداولية التي تمثّل علماً للتواصل الإنساني – يدرس كيفية إنتاج الناس وتأويلهم أفعال الكلام – وينطلق من رأي مفاده أن المعنى ليس هو الهدف بذاته، فلا معنى للمعنى إن لم يدرس مرتبطاً بمقاصد قائله، ملابسات إنتاجه، وتأويل متلقيه. فمثلاً إذا أُنتج الكلام ووجِّه إلى متلقٍ ما، ورفض الإجابة أو لم يعر اهتماماً لعملية الإنتاج اللغوي، فإنّ ماء وجه المخاطَب ليس وحده من سيهدر، بل العملية الكلامية برمتّها.

لقد انطلقت التداولية في بحثها من رفضها مقولة علماء اللسانيات القائلة إنّ اللغة وحدها الجديرة بالدراسة العلمية والعملية، واتجهت نحو دراسة الكلام البشري منطلقة من فكرة مفادها إن الإنسان كائن تواصلي، وتواصليته مشروطة بالآخر، تفاعلاً وانفعالاً، فهماً وإفهاماً، فائدةً وإفادةً، والركيزة الأساسية لكل ما سبق ذكره – بحسب المفهوم التداولي – تكمن في الفعل الكلامي. لذا تكون دراسة قواعد الفعل الكلامي وما يتعلق به المنطلق الذي انطلق منه علماء التداولية في محاولة إيجاد التفسير المتعلق بسؤال الكيفيّة.

وللحجاج خصوصية واضحة في كتاب المعيار والموازنة تتجلى في إظهار اللغة بمستواها التفاعلي التداولي الذي يعمّق التواصل بين المرسل والمتلقي، ويمتاز بميزة الإقناع كاستراتيجية مؤثرة، إذ ليس بوسعنا، دون دراسة اللغة في حيّز الاستعمال – الكلام– أن نتوقّف على الغايات المضمرة أو البيّنة في ذهن الآخر الضروري وجوده ليس لفهمنا فحسب، بل لوجودنا واستمرارنا أيضاً.

اتخذت الدراسة منهجية أكاديمية من خلال البدء بمقدمة تمهيدية، ثم الحديث في أول مبحث عن مفهوم الحجاج ونشأته، وانفرد المبحث الثاني للحديث عن علاقات الحجاج، وكان المبحث الثالث مساحة لتوضيح السلم الحجاجي، وانتهت الدراسة بخاتمة ونتائج وأهم التوصيات، تلاها ثبت المصادر والمراجع.

واعتمدت الدراسة المنهج التداولي الذي يعد الاقتضاء أحد مفاهيمه من خلال تحليل المعنى في سياق الاستعمال مع الاستناد إلى اعتماد الإجراءات التداولية الأخرى المرتبطة بالعلاقات المتبادلة بين المتكلم والقارئ، وتوضيح مقاصد المتكلم، والكيفية التي يتلقاها السامع، والظروف المحيطة بإنتاج الخطاب.

وهدفت الدراسة إلى إبراز فضائل الإمام علي عليه السلام، وذلك وفقاً لتجلّيها في كتاب المعيار والموازنة للإسكافي بالاستعانة بآلية الحجاج كونها تهتم بما يمكن تحققه على مستوى الإقناع أو التأثير أو التفاعل.

وتكمن أهمية الدراسة بتناولها خطاب الحث على الفضائل التي تحلى بها علي بن أبي طالب عليه السلام من منظور قرائي معاصر، وإبراز دور الأخلاق الحميدة في نشر الخير وتوطيد العلاقات الإنسانية وتنظيمها.

المبحث الأول: مفهوم الحجاج ونشأته

ورد في معجم اللغة قولهم: "حاججته أحاجه حجاجاً ومحاجة حتى حججته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها... وحاجه محاجة وحجاجاً نازعه الحجة...والحجة الدليل والبرهان" (ابن منظور، 2005، مادة (حجج))، وهذا يجعل الحجاج قريباً من الجدل الناجم عن الخصومة عبر الأدلة؛ فهي الأدلة التي تضفي على المعنى رسوخًا في ذهن المتلقي. "وقد اتسع معنى الحجة، فلم يعد يقتصر على الإثبات فقط، بل تعداه ليشمل مجمل قول القائل، سواء في البدء أو الجواب، وما يضمر ضمن هذا القول من معانٍ" (طه، 1993: 5)، وإن كان هذا المعنى المتضمَّن في معظم معاجم اللغة إلا أنه معنى له جذوره في الغرب، فقد "أخذت كلمة Argument من الفعل اللاتيني Arguere وتعني جعل الشيء واضحاً ولامعاً وظاهراً، وهي بدورها من جذر إغريقي Argues ويعني أبيض لامعاً، ويشير المصطلح Argue في اللغة الإنجليزية الحديثة إلى وجود اختلاف بين طرفين، ومحاولة كل واحد منهما إقناع الآخر بوجهة نظره من خلال تقديم الأسباب أو العلل التي يراها حجة مدعمة أو داحضة لفكرة أو رأي أو سلوك ما" (عليوي، 2010: 2).

إن الحجاج وليد المدرسة البارغماتية المهتمة بدراسة استعمالات الكلام والبحث في مطابقة الأشكال الدالة للسياقات المرجعية (الدريدي، 2011: 16)، ويرتبط هذا الحجاج بالمنطق والخطابة والجدل، فغالباً نجد في الخطابة حجاج بالمثل، وفي الجدل حجاج بالقياس، فالحجاج سلسلة من الأدلة تفضي إلى نتيجة واحدة أو الطريقة التي تطرح بها الأدلة (وهبة، 1979: 393)، لكن عندما يكون الحجاج خطابياً فهو يتأطر في مجال توجيه الفعل وخلق اليقين بما احتواه الخطاب في موضع الحجاج.

و"يحدد (Laland) معنى الحجاج من خلال تقديم المعطيات التالية:

- المحاججة أو الحجاج: هي سلسلة من الحجج تنتهي بشكل كلي إلى تأكيد النتيجة نفسها، ويرى أن الحجاج طريقة في تنظيم الحجج واستعراضها أو تقديمها.
- الحجة: ويعتبرها بمثابة استدلال موجه لتأكيد قضية معينة أو دحضها أو تفنيدها.
- الدليل: عملية توجه التفكير العقلي بصورة يقينية ومقنعة، وبذلك يتخذ الدليل صورة استدلال تصير فيه النتائج منسجمة مع المقدمات التي انطلقت منها، ويحيل الدليل من جهة أخرى إلى الواقع، ليأخذ من ثمة مضموناً مادياً تصبح بموجبه الوقائع والأحداث والوثائق بمثابة أدلة، ويتميز الدليل عن الأشكال الأخرى للاستدلال بميزة الحقيقة.
- البرهنة: هي استنباط يوجه لتأكيد أو إثبات نتيجة، وذلك بالاستناد إلى مقدمات معترف لها بميزة الصدق أو الحقيقة" (عليوي، 2010: 2-3).

"لقد انبثقت نظرية الحجاج في اللغة من داخل نظرية الأفعال اللغوية التي وضع واقترح إضافة فعلين لغويين هما فعل الاقتضاء وفعل الحجاج...والحجاج هو تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، وهو يتمثل في إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخرى، يتمثل الحجاج في إنجاز متواليات من الأقوال بعضها بمثابة الحجج اللغوية، وبعضها الآخر بمثابة النتائج التي تستنتج منها" (عليوي، 2010: 57).

الحجاج عند برلمان: هو: "جملة من الأساليب تضطلع في الخطاب بوظيفة هي حمل المتلقي على الاقتناع بما نعرضه عليه أو الزيادة في حجم هذا الاقتناع... فغاية الحجاج الأساسية إنما هي الفعل في المتلقي على نحو يدفعه إلى العمل أو يهيئه للقيام بالعمل" (برلمان وتيتيكاه، 1981: 13)، وأشار (ديكرو وأنسكمبر) إلى أن الحجاج باللغة يجعل الأقوال تتتابع وتترابط على نحو دقيق فتكون بعضها حججاً تدعم وتثبت بعضها الآخر (ديكرو وأنسكمبر، 1983: 28)، ونستطيع من المفاهيم والتعريفات السابقة الوقوف على معنيين محوريين للحجاج هما:

الحجاج عموماً:

الحجاج هو: "طريقة عرض الحجج وتقديمها، ويستهدف التأثير في السامع، فيكون بذلك الخطاب ناجعاً فعالاً، وهذا معيار أول لتحقق السمة الحجاجية، غير أنه ليس معياراً كافياً، إذ يجب ألا تهمل طبيعة السامع أو المتقبِّل المستهدف، فنجاح الخطاب يكمن في مدى مناسبته للسامع، ومدى قدرة التقنيات المستخدمة على إقناعه" (الحباشة، 2008: 21).

الحجاج فنياً:

الجذور الأولى للمفهوم الحجاجي كانت غربية، لكن لم تعدم لغتنا العربية في تاريخها القديم وجود تجليات حجاجية نقدية في دراسات تداولية، إذ تضمن كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ ملامح تداولية واضحة، تتقاطع مع بعض قضايا الحقل التداولي الحديث، ونجد لدى القرطاجني زوايا تداولية، فقد كانت – لديه ولدى التداوليين أمثاله– فكرة القصدية الجوهر الفعلي للبحث التداولي برمته، وإذا كان المعنى وفقاً للمنظور التداولي الحديث لا قيمة له إلا في حيز الاستعمال والتداول، وبارتباطه بمقاصد المتكلمين ونواياهم، فإن للقرطاجني السبق في الإشارة إلى ضرورة الالتفات إلى فكرتي (القصدIntention والتواصل Communication) وذلك بوضعه اللغة على طاولة البحث. فالكلام في نظر القرطاجني بوجود القصد يدلّ ويفيد، وبلا قصد لا معنى له، ويقول في هذا السياق: "لما كان الكلام أولى الأشياء بأن يجعل دليلاً على المعاني التي احتاج الناس إلى تفاهمها بحسب احتياجهم إلى معاونة بعضهم بعضاً على تحصيل المنافع، وإزاحة المضار، وإلى استفادتهم حقائق الأمور وإفادتها، وجب أن يكون المتكلم يبتغي إما إفادة المخاطب، أو الاستفادة منه" (القرطاجني، 1966: 344).

المبحث الثاني: علاقات الحجاج

إن أساس علاقة الحجاج أياً كانت هذه العلاقة هي الاستناد إلى العلاقة بين المخاطِب والمخاطَب، و"تقوم العلاقات الحجاجية وتتأسس على ثلاثة عناصر أساسية هي: الإينوس (الصفات المتعلقة بالمتكلم)، والبانوس (التأثير في الآخر)، واللوغوس (الخطاب أو اللغة أو العمليات الاستدلالية العقلانية داخل الخطاب) (عشير، 2006: 205).

علاقة الحجاج هي تلك العلاقة الرابطة بين السبب والنتيجة، بهدف إقناع الآخر المتلقي، و"الإقناع هو صنيع الخطيب الذي يعالج الآراء والأشياء" (جبار، 2017: 30).

يجب أن يكون تحليل الخطابات قادراً على تحديد العلاقات الخطابية (روبول، وموشلار، 2020: 167) وتتسم الحجج اللغوية بالسمات الآتية:

- سياقية: العنصر الدلالي الذي يقدمه المتكلم باعتباره يؤدي إلى عنصر دلالي آخر، يحوله السياق إلى حجة، وهذا السياق هو من يمنحه طبيعته الحجاجية.
- نسبية: فلكل حجة قوة حجاجية معينة، إذ يقدم المتكلم حجة ما لصالح نتيجة معينة، ويقدم خصمه حجة مضادة أقوى منها، إذ إن الحجاج اللغوي نسبي ومرن وتدريجي وسياقي بخلاف البرهان المنطقي والرياضي الذي هو مطلق وحتمي (العزاوي: 19–20).

فالخطاب عموماً يقوم على بناء لفظي، و"الملفوظات تختص إذن بقطبية حجاجية، أي بكفاءة في الدخول إلى محمل لغوي موجه نحو استنتاج دقيق، وعدم قدرتها بالتوازي على الدخول في محمل موجه نحو الاستنتاج المضاد" (الحباشة، 2008: 18)، وهنا يمكن أن نشير إلى الرابط الواضح بين اللفظ وقدرته على الدلالة في ميدان التداولية، لكن ننطلق – بداية – من وجهة نظر شخصية مفادها أننا لا نتكلم لأننا تعلمنا الكلام، بل تعلمنا الكلام رغبة في التواصل مع الآخر الذي يرتبط وجودنا بوجوده وفهمه لنا؛ أي إنّ هدف العملية الكلامية برمتها إنشاء جسر تواصل مع الآخر؛ وهو – الكلام – بهذا المعطى يشكّل فعلاً مكتسباً غير غريزي، يتبلور وفق ظروف مختلفة ثقافية واجتماعية وغير ذلك من ظروف تخص جماعة ما. وطالما هو فعلٌ فهو بمجرد حصوله كائن مكتف بنفسه يتوجه برسالة ما، إلى مخاطَب ما، ضمن سياق ما.

ولو تأملنا المقطع الآتي الذي يحمل أثر علي عليه السلام في أصحابه لوجدنا عقبة المرادي يقول يوم صفين متمثلاً توجيهات الإمام وعقيدته: "فما تنتظرون عباد الله في جهاد أعداء الله؟ أخوفاً من اليوم القادم عليكم الذاهب بأنفسكم لا محالة؟ أو من ضربة كف بالسيف تستبدلون الدنيا بالآخرة، ومرافقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في دار القرار؟ ما هذا بالرأي السديد. ثم مضى وقال: "يا إخواني إني قد بعت هذه الدار الدنيا بالدار الآخرة التي أمامها وهذا وجهي إليها فلا تبرح وجوهكم ولا يقطع الله رجاءكم، فتبعه إخوته وقالوا: "لا نطلب رزقاً بعدك، قبح الله العيش بعدك". اللهم إنا نحتسب عندك أنفسنا، فاستقدموا فقاتلوا. فقُتِلُوا رحمهم الله (الإسكافي، 1981: 159–160).

يحمل المقطع السابق فكراً حجاجياً واضحاً مليئاً بالمعاني، علماً أن "المعاني القائمة في صدور الناس، المقصورة في أذهانهم، المتغلغلة في نفوسهم. مستورة خفية، وبعيدة وحسية، محجوبة مكبوتة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، إلا بغيره وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إياها، وهذه الخصال هي التي تعود بها إلى الفهم وتجليها للعقل، وتجعل المهمل معبدّاً، والمقيد مطلقاً" (الجاحظ، 1975: 87)، وقد حمل المقطع السابق المعاني الدالة على ترك الدنيا الفانية وملذاتها واستبدال الآخرة بها، وهذا ما نراه في الآتي:

من ضربة كف بالسيف تستبدلون الدنيا بالآخرة، ومرافقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين في دار القرار، وهذا يوحي بالإغراء الواضح للسعي لنيل رفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين؛ لأن هذه الرفقة تعكس المثوبة الكبيرة التي يحصل عليها المتقون.

إن الحجة هي الإغراء بما سيؤول إليه حال المؤمنين من نعيم وثواب خالد برفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

- أخوفاً من اليوم القادم عليكم الذاهب بأنفسكم لا محالة، فاستنكار الهرب من الموت نتيجة طبيعية، إذ إن الموت محتّم، والخوف من المحتم لن يغيّر القدر، لذا لا داعي للخوف والتهرب من الجهاد، فنجد الحجة تحذيرية من أمر واقع لا محالة، وهذا الأمر حجة واضحة بأن البدائل مستحيلة.
- إني قد بعت هذه الدار الدنيا بالدار الآخرة التي أمامها.

كانت الحجة تأكيد الجزاء، وإبراز تحقق الأمر، مما يستدعي إبراز هامشية الدنيا قياساً بالآخرة.

ففي قول الإمام علي عليه السلام: "أفيضوا في ذكر الله فإنه أحسن الذكر، وارغبوا فيما وعد المتقين فإن وعده أصدق الوعد" (الريشهري، 2001: 4734) نجد عمق الصدق الحجاجي.

إنّ المعنى لا يتوقف على الإخبار بل يتعداه إلى الاستعمال المؤثر المحرّض الساعي إلى تعزيز الزهد في الدنيا وعدم الخوف من الأمور الزائلة، فكان الخبر الداعي إلى هذا الأمر محملاً بالحجج السابقة.

والحجج بمجمل علاقاتها متنوعة، ومن بين أنواع الحجج التي ننقلها عن بعض الدارسين:

- حجة التبرير... وأداتها (بما أن).
- حجة الاتجاه... وغرضها التحذير من انتشار شيء ما.
- الحجة التواجدية: تبنى على علاقة الشخص بعمله.
- الحجة الرمزية: للرمز قوة تأثيرية في الذين يقرون بوجود علاقة بين الرامز والمرموز إليه.
- حجة المثل: إن الغاية من اعتماده حجاجياً هو التأسيس للقاعدة والبرهنة على صحتها.
- حجة الاستشهاد: الغاية توضيح القاعدة، وتكثيف حضور الأفكار في الذهن، وربما كان الاستشهاد أداة لتحويل القاعدة من طبيعة مجردة إلى أخرى محسوسة، ولعل القرآن الكريم فيما يقدم لنا من أمثلة حجاجية أهم مصدر لهذه الأشكال الحجاجية، على أن العناية بالاستشهاد القائم على التمثيل مقيد بجملة من القيود أهمها عدم إطنابه (الحباشة، 2008: 48-49).

فالخطاب الحجاجي متنوع غني بمعطيات الإقناع والتأثير، ولاسيما أنه خطاب لغوي له بعده الخاص المتمثل بالبعد الحجاجي اللغوي بامتداداته الإقناعية التي تؤثر في المتلقي، وذلك بوساطة متن لغوي محمّل بدلالات تغني السياق الإقناعي، وذلك لأن "اللغة تحمل بصفة ذاتية وجوهرية وظيفة حجاجية" (العزاوي، 2006: 14)، إنه الحجاج المفضي إلى الترسيخ في العقل.

ثنائية العلاقة الحجاجية:

"تتحدد العلاقة الحجاجية بين المتكلم والمستمع حول طرح أو فكرة أو انتظار، انطلاقاً من اعتبار الاختلاف القائم أصلاً بينهما أو المفترض عن طريق طرح السؤال بخصوص القضايا المعروضة للنقاش والتي تهم الناس، فالقضايا التي تحكمها معرفة مسبقة أو مفترضة هي التي تحدد المسارات المختلفة للعلاقات الحجاجية بين المتكلم والمستمع انطلاقاً من المرجعيات التي يعتمدها كل واحد منهما" (عشير، 2006: 206) علماً أن التباين أو الاتفاق متأرجح متفاوت في درجته وشدته وفقاً لحالة طرفي الثنائية الخطابية المتمثلة بالمخاطِب والمخاطَب ومحيط كل منهما.

المبحث الثالث: السلم الحجاجي

السلم الحجاجي هو علاقة ترتيبية للحجج... إنه فئة حجاجية موجهة، وهذا يفرض عليها بناء خاصاً في المجال الخطابي، ويتسم السلم الحجاجي بالسمتين الآتيتين:

- كل قول يرد في درجة ما من السلم يكون القول الذي يعلوه دليلاً أقوى منه
- إذا كان القول يؤدي إلى نتيجة، فهذا يستلزم أن الذي يعلوه درجة يؤدي إليها، والعكس غير صحيح (عليوي، 2010: 60).

والسلالم الحجاجية منوطة بالآتي:

الحجاج والبرهنة، ويمكن الانطلاق من هذين الملفوظين:

- لم يقرأ كل كتب (المبرّد).
- قرأ بعض كتب (المبرّد).

الملفوظ الأول (أ) موجه بالضرورة نحو استنتاج سلبي من جنس الشخص المتحدث عنه محدود المعرفة، أما الملفوظ الثاني (ب) موجه نحو استنتاج إيجابي من جنس الشخص المتحدث عنه يعرف (المبرّد) (الحباشة، 2008: 24)، وهذا يعزز مقصد التلفظ بالكلمات، لأن اللغة ليست اعتباطية الدلالة، وهذا ما يوضحه المثال الآتي: في ذكر صفحة من صفحات صبر الإمام علي عليه السلام، وتحمله عن حاسديه ومعانديه وعدم تعرضه: "وبلغ من صبره أنه قعد عن خلافته قوم فلم يحبهم ولم يكرههم، وتكلموا فلم يعاقبهم، ولم ينفهم، وولاهم ما تولوا ولم يفعل بهم. كما فعل من ذكرتم بسعد بن عبادة، وكما رويتم من نفي عثمان بن عفان لأبي ذر إلى الربدة، وما فعل بعمار وابن مسعود وغيرهم" (الإسكافي، 1981: 235)، وهذا الصبر يبرز تقوى الإمام عليه السلام، ومطواعيته لكل ما جاء في القرآن الكريم، لأنه المؤمن التقي الذي آمن بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم منذ نعومة أظفاره، وكان خير من تحلّى بالفضائل التي اكتنز القرآن بالدعوة إليها، والقرآن هو الحجة التي لا يمكن

لمسلم إنكارها، لذا قال عليه السلام: لا تخاصمهم بالقرآن فإن القرآن حمال ذو وجوه ولكن حاججهم بالسنة، وذلك لأن الكتاب يحتمل من الوجوه ما لا تحتمله السنة، وما كان أكشف وأبين من مراد قائله، فالاحتجاج به أقرب، وسنة الرسول صلى الله عليه وآله أظهر في إبطال مذهب الخوارج من القرآن لأنه صلى الله عليه وآله وسلم أقام الحدود على الفساق والجناة، وأقام فيهم حكم المؤمنين من الحدود، ولا يخفى ذلك على الأمة ولا نزاع فيه لوقوع المشاهدة، والاحتجاج بالمشاهدة أقوى" (البيهقي، د.ت: 597)، وهذا يعطي الحجاج ثباتاً وقوة وتأثيراً.

بما أن "الحجاجية ... توجيه عقلاني للفعل داخل الخطاب– اللوغوس، وإعادة إنتاج مصادره المضطربة والغامضة والملتبسة في التجربة الاجتماعية من جهة، وداخل نسق اللغة من جهة أخرى" (عمارة، 2009: 164)، من الطبيعي أن نبصر في القول السابق جمالية حجاجية متأتية من السعي للإقناع بفضائل الإمام علي عليه السلام المتحققة من وحي الأحداث المعيشة الآتية:

- بلغ من صبره أنه قعد عن خلافته قوم فلم يحبهم ولم يكرههم: أبرز الحجاج بوساطة النفي/ فلم يحبهم ولم يكرههم/ عدم إبداء أي رد فعل تجاههم، وهذا يبرز صبره على سوء تعاملهم، وتقصيرهم فيما عليهم القيام به تجاهه، وهذا الصبر والحلم خلقٌ غير غريب عن الإمام علي عليه السلام، فقد جاء في قول ابن أبي الحديد:

"وأما الحلم والصفح فكان أحلم الناس على مذنب، وأصفحهم عن مسيء، وقد ظهرت صحة ذلك يوم الجمل حيث ظفر بمروان بن الحكم وكان أعدى الناس له وأشدهم بغضاً، فصفح عنه، وكان عبد الله بن الزبير يشتمه على رؤوس الأشهاد، وكان عليه السلام يقول: مازال الزبير رجلاً منا أهل البيت حتى شب ابنه عبد الله فظفر به يوم الجمل فأخذه أسيراً فصفح عنه، وظفر بسعيد بن العاص بعد وقعة الجمل بمكة وكان له عدواً فأعرض عنه، أما إكرامه لأم المؤمنين السيدة عائشة فقد بعث معها إلى المدينة عشرين امرأة من نساء عبد القيس عممهن بالعمائم وقلدهن بالسيوف، فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكر، وتأففت وقالت: هتك ستري برجاله وجنده الذين وكلهم بي، فلما وصلت المدينة ألقت النساء عمائمهن، وقلن لها: إنما نحن نسوة، وحاربه أهل البصرة، وضربوا وجهه، ووجوه أولاده بالسيف، وسبوه ولعنوه، فلما ظفر بهم رفع السيف عنهم" (البيلاني، 2006: 34)، هذه هي فضائل الإمام التي يبرز الصبر والحلم واحداً منها، والصبر جهاد بحد ذاته، لأنه يحتاج إلى الجرأة ومكابدة النفس، لذا كان حجة تشير إلى سمو صاحبه ورفعة خلقه.

- تكلموا فلم يعاقبهم، ولم ينفهم: وهذا يشير إلى التغاضي عن الإساءة، فجاء النفي في قوله: تكلموا فلم يعاقبهم، ولم ينفهم، ليشير إلى سعة الرحمانية في تسامح الإمام عليه السلام، وكان هذا النفي متمثلاً بالتصريح بعدم مقابلة الإساءة بمثلها.

- وولاهم ما تولوا: إبراز لتحقق الولاية، لأن الفعل (ولّى) حجة من حجج تحقق الحدث وثبات وقوعه.
- لم يفعل بهم. كما فعل من ذكرتم بسعد بن عبادة، وكما رويتم من نفي عثمان بن عفان لأبي ذر إلى الربدة، وهذا ما يبرز صفحه مع أنه قادر على إبادة خصمه، والعفو لا يكون إلا عند المقدرة، والإمام علي قادر بما منحه الله من قدرة استخدمها في أرض المعركة لإبادة الأعداء، لكن في الوقت ذاته صفح عن أعدائه خارج الوغى الذي كان هدفه الدفاع عن الذات والدين والعرض والكرامة، فهو القوي السخي، وقد نُسب إليه المقطع الآتي:

أنا الصقر الذي حدّثت عنه *** عتاق الطير تنجدل انجدالا

وقاسيت الحروب أنا ابن سبع *** فلما شبت أفنيت الرجـــالا

فلم تدع السيوف لنا عدوا *** ولم يدع السخاء لدي مـالا

(ابن أبي طالب، د.ت: 297).

وهذا المقطع يشير إلى قوة الإمام عليه السلام، ويعزز ترسيخ فضائله، ويمثّل حجة واضحة تبرز عظمة أخلاقه لدى كل من يسمع بأخباره.

قوانين السلم الحجاجي:

تتعدد قوانين السلم الحجاجي، وهي:

1. قانون النفي:

إذا كان قولٌ ما مستعملاً من قبل متكلم ما له نتيجة معينة فإن نفيه سيكون حجة لصالح النتيجة المضادة (العزاوي، 2006: 22)، هذه الحجة التي تعزز تحقق ترسيخ أمر في ذهن المتلقي، نحو نفينا لأمر ما مثل: "ليس وطننا وطناً آمناً" بمعنى: "لا أمان في وطننا"، وهذا ما نبصره أيضاً في الآتي: "وليعلم الفار منكم أنه لا يزيد في عمره ولا يرضي ربه وأن في الفرار سخطاً عليه، والذل اللازم لأهله، والعار الباقي، وفساد العيش عليه، فيموت المرء محقاً خير من الحياة على الفرار بهذه الخصال. ثم قال: "والذي بعث محمداً بالحق لقد قاتلت معاوية وأباه على تنزيل الكتاب، وأنا اليوم أقاتله وأشياعه على تأويله، وإن البصيرة في الأمرين جميعاً لواحدة بالعلم بما نحن عليه من الهدى والحمد لله" (الإسكافي، 1981: 150).

نلاحظ النفي في قوله: ليعلم الفار منكم أنه لا يزيد في عمره ولا يرضي ربه، وهذا النفي يعني عدم الحصول على عمر يفوق المحدد من الأجَل المحتوم، للإقناع بضرورة الاندفاع في سبل الجرأة

والشجاعة لأن العمر الذي يسعى الإنسان لصونه إذا حان أجله لا يستقدم ساعة ولا يتأخر، إنه الموت الذي يجهل المرء زمانه ومكانه، يأتيه بلا استئذان.

وهذا القول يتماهى مع سابقه: (أخوفاً من اليوم القادم عليكم الذهاب بأنفسكم لا محالة؟ أو من ضربة كف بالسيف تستبدلون الدنيا بالآخرة)، وهو دلالة على ثقته بالله وصدقه الذي لا شك فيه.

2. قانون القلب:

نفي أي درجة أو دليل في السلم لا يستلزم نفي ما يقع في المرتبة التي تعلوه، يرتبط هذا القانون أيضاً بالنفي، ويعد تتميماً للقانون الذي مفاده أن السلم الحجاجي للأقوال المنفية هو عكس سلم الأقوال الإثباتية (العزاوي، 2006: 22)، وهذا ما نراه في المثال الآتي تحت عنوان شأنه عليه السلام في حروبه مع أعدائه، ثم وصيته عليه السلام وتحريضه لأصحابه عند دنوهم من عدوهم للمناوشة والمقاتلة:

وقالوا: إنه كان، رضي الله عنه، لا يبدأ عدوه بقتال حتى يبدؤوه، ولا يحاربهم حتى ينابذوه، فلما نابأهم يوم صفين، وأنظرهم، فلم يدعوا ولم يرجعوا، أمر مناديه، فنادى في أهل الشام:

"ألا إني قد استدمتكم واستأنيتكم لترجعوا إلى الحق وتنثنوا إليه، واحتججت عليكم بكتاب الله ودعوتكم إليه فلم تنتهوا عن طغيانكم، ولم تستجيبوا للحق. ألا وإني قد نبذت إليكم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين".

ثم تقدم إلى مقدمته، أن قفوا ولا تقدموا عليهم إقدام من يريد أن ينشب حرباً، ولا تتأخروا عنهم تأخر من يهاب البأس، ولا يحملنكم سبابُهم إياكم على قتالهم قبل أن تدعوهم وتعذروا إليهم، وكان إنما يأتي بمثل هذا القول ليفهم أنهم يعلمون أن غايته ومراده إنما هو اتباع حكم الله والوصول إلى الحق في قتالهم (الإسكافي، 1981: 158)، فقوله: "لا يبدأ عدوه بقتال حتى يبدؤوه" يحمل بعداً حجاجياً، إذ يعبر عن أنه لم يحصل بدء القتال منه بل بدءُ القتال من العدو؛ لذا كانت (حتى) دليلاً على أنه لم يحصل البدء من طرفه بل من طرف العدو، مما يعطي قتاله مشروعية الدفاع عن الحق، ويعطي العدو صفة الاعتداء.

ولم يكن يحب الإمام عليه السلام إراقة الدماء، ولم يكن قتاله إلا ليحمي الدين والضعفاء والمستضعفين والأعراض والكرامة، لذا عندما كان عدوه يطلب المهادنة، كان يرضى بها حقناً للدماء، وهذا ما نراه عندما قبل "المهادنة بينه وبين معاوية على أن تكون له العراق ولمعاوية الشام، ويكُفّا السيف عن هذه الأمة فلا نزاع ولا قتال (البيلاني، 2006: 183)، وهذا حجة على جنوح الإمام عليه السلام بالجنح، تمثلاً لقوله تعالى: "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها"، إنه السلم الذي يعطي الحياة طمأنينة وخيراً.

3. قانون الخفض:

أي "إذا صدق القول في مراتب معينة من السلم فإن نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها، يوضح قانون الخفض الفكرة التي ترى أن النفي اللغوي الوصفي يكون مساوياً للعبارة (الجو ليس بارد فهو دافئ)، و(عبد الباري ليس صديقي لكن ليس عدوي)" (عليوي، 2010: 60–62)، فهو يضع الحجج عبر آلية تعبيرية خاصة.

ويعود السلم الحجاجي في ترتيبه والمفاضلة بين قواه إلى المخاطب بحسب ما يراه، ففي الخطاب الآتي الذي جرى بين الإمام علي عليه السلام ومخاطَبيه نجد الآتي:

"الْحَمْدُ لِلَّهِ أَحْمدهُ وَأستَعِينهُ وَأؤْمنُ بِهِ وَأَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ... الأول لا شيء قَبْلَهُ، وَالآخرُ لا غَايةَ له، عَلا فَدنَا، وَدَنَا فَعَلا... ولا تعقد القلوب منه على كيفية... وَلا يَنالهُ التجزئة على صفة ولا يُدركه التبعيض... الذي لا مِن شيْءٍ كَان. وَلا مِن شَيءٍ خَلَقَ مَا كَانَ. قُدْرَةٌ بأن "بها من الأشياء وبانت الأشياء منه، فليست له صفة تنالُ، وَلَا حَدٌ تُضْرَبُ لَهُ فِيهِ الأَمْثَالُ" (الإسكافي، 1981: 144)، فالنفي اللغوي الوصفي يعادل قولنا: لا شيء قَبْلَهُ، فهو الأول، وهو لا يُحيط به حد/ إذ ليس كمثله، وإن لم يكن مجهولاً.

لو نظرنا إلى الحجاج حول التوحيد لوجدنا أن الدلالة تحققت وترسخت، الإمام علي عليه السلام قد وضع صياغة الحجج المؤكدة الوحدانية، وقدرة الله تعالى لإقناع المخاطَب عامداً إلى استعمال أكثر من صيغة وإنتاج أكثر من خطاب ينتمي إلى درجة من السلم الحجاجي.

إن وصل الخطاب بالأدلة الداعمة واضح جداً في كتاب المعيار والموازنة، لأن هذه الخطابات مبنية على حقائق شتى لها نجاعتها من ناحية الحجاج والإقناع.

وقد يتجلى الحجاج بوساطة الخبر الطلبي والإنكاري نحو ما نراه في قوله معبراً عن أن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام كان قد فاق العالمين زهداً وصبراً وعبادة، وكان أزهدهم في الزخارف الدنيوية وأصبرهم عند الشدائد وأعبدهم في ساحات المناجاة مع الله ومقام العبودية... ثم ارجعوا إلى النظر في الزهد، ودرجته لتعلموا أن علي بن أبي طالب قد برز على الزاهدين بزهده وصبره، وسبق العابدين بعبادته، فكان ثمن يطعم الطعام على حب الله مسكيناً ويتيماً وأسيراً" (الإسكافي، 1981: 226)، فالخبر الطلبي برز في الآتي:

- كان قد فاق العالمين زهداً وصبراً وعبادة: تجلى الخبر الطلبي باستعمال مؤكد واحد هو قد التحقيقية التي أكدت الجملة الفعلية التي فعلها ماض، فتحقق تفوق علي عليه السلام بالزهد والصبر والعبادة.

ولا يكتفى لإنجاح الخطاب، امتلاك الطرفين (المخاطِب، والمخاطَب) قدرات ذهنية لإنتاجه، بل يتطلب الأمر قدرة على ترتيب الكلام وتنظيمه، إذ لا قيمة للعلامات اللغوية إذا كانت منعزلة، ولا يكون لها دور تواصلي ما لم تنتظم في نسق تتآلف فيه الأجزاء، ويتشابك فيه القول السابق باللاحق، لتشكيل خطاب كلّي ذي هدف تواصلي، يحقق سلمًا حجاجيًا مقنعًا.

الخاتمة:

كان الحجاج بأسسه ذا أثر فعّال في الكشف عن دلالات أسهمت في بناء علاقة تواصلية راسخة بين المبدع ومتلقي نصوص كتاب (المعيار والموازنة)، وقد أظهرت هذه النصوص فضائل الإمام علي عليه السلام من خلال تقنيات متعددة، كان أبرزها السلم الحجاجي، الذي شكّل أداة تفاعلية مؤثرة في تعميق الإعجاب والاعتزاز بشخصيته الفذة، وتأكيد سمو أخلاقه. وقد ظل الحجاج قائمًا على معيار ثابت يتمثل في التأثير الفعّال في المتلقي؛ إذ أدت الكلمة دورها الحجاجي في الإقناع، ودفع المتلقي إلى التسليم بفضائل الإمام علي عليه السلام، حتى ليُستشفّ من تلك الفضائل أنه الأجدر، والأكفأ، والأحق بأمر الخلافة من غيره، حتى إن افترضنا جدلاً أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لم يوصِ لعلي (عليه السلام) له بها صراحة، فإن فضائله وسماته كانت كفيلة بأن ترشحه تلقائيًا لاختيار الأمة.

النتائج:

1- تعد لغة الحجاج، قصدية الدلالة، متينة التراكيب، بعيدة عن الأساليب النحوية المعقدة؛ لأن هدفها الإقناع والوضوح.

2- قام الحجاج على علاقات مبنية بوساطة أدوات تعبيرية منها: الشرط والقصر والتكرار والتعليل والربط.

3- كان الحجاج في المعيار والموازنة أصدق محاكاة وإسقاط للجانب الإنساني بكل تجلياته: العقلية، والثقافية، والاجتماعية، والنفسية، وغيرها).

4- تعددت قوانين السلم الحجاجي، وهي:

- قانون الخفض: أي إذا صدق القول في مراتب معينة من السلم فإن نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها.
- قانون النفي: إذا كان قول ما مستخدماً من قبل متكلم ما يستخدم نتيجة معينة فإن نفيه سيكون حجة لصالح النتيجة المضادة.

- قانون القلب: نفي أي درجة أو دليل في السلم لا يستلزم نفي ما يقع في المرتبة التي تعلوه، يرتبط هذا القانون أيضاً بالنفي، ويعد تتميماً للقانون الذي مفاده أن السلم الحجاجي للأقوال المنفية هو عكس سلم الأقوال المثبتة.

5- تأثرت لغة الحجاج بكل ما يحيط بها من معطيات لغوية، وأخرى غير لغوية، وبالقدرة العقلية والحالة النفسية لكل من المتكلم والمتلقي.

6- كانت لغة الحجاج محورًا مهمًا من محاور الدرس التداولي وميدانًا رئيسًا في هذا الدرس، وهي ليست إلاّ نشاطاً أُفرغ في حيز استعمالي هادف إلى التحريض على الحذو حذو الإمام علي رضي الله عنه وأرضاه، والإقناع بفضائله بوساطة تأثير المصدر في المستقبلين بطريقة مناسبة ومساعدة على تحقيق الأهداف المرغوب فيها.

7- تعد السلالم الحجاجية إنتاجًا تجسد من خلاله النظام اللغوي ضمن سلسلة من الأفكار والبنى المتماسكة، وكانت هذه السلالم منتجاً أبرز واقعاً اجتماعياً له خصوصيته ضمن موقف تواصلي إرشادي وعظي، يتجدد ويختلف مع تجدد واختلاف موقف التواصل.

8- شكّل الفعل الحجاجي – وهو نمط من أنماط السلوك الاجتماعي النواة المركزية لمفهوم التداول والاستعمال، إذ يتضمن كل الأشكال الكلامية التي تلتمس تأثيراً على المخاطب، بغرض تحقيق تأثير ما.

عوداً إلى بدء، نودّ تأكيدًا أنّ المعنى ليس هو الهدف ذاته ولذاته، بل إنّ الهدف يكمن في دراسة كيفيّة الوصول إلى المعنى المقنع.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن منظور (2005): لسان العرب، ط1، بيروت: دار الأعلمي.
- الإسكافي، أبو جعفر (1981): المعيار والموازنة في فضائل الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه، تحقيق: محمد المحمودي، ط1، شبكة الفكر.
- برلمان وتيتيكاه (1981): الخطابة الجديدة، ط1، المطابع الجامعية بليون.
- بن أبي طالب، علي (د.ت): ديوان الإمام علي، إعداد: عبد الله سندة، ط1، الأردن: دار الرضوان.
- البيلاني، علي (2006): موسوعة الإمام علي، حياة الإمام وحروبه، ط2، بيروت: المركز الثقافي اللبناني.

- البيهقي، قطب الدين (1416هـ): حدائق الحقائق في شرح نهج البلاغة، تحقيق: الشيخ عزيز الدين العطاردي، ط1، قم: مطبعة اعتماد.
- الجاحظ، أبو عمرو بن بحر (1975): البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، ط4، مصر: مكتبة الجاحظ.
- جبار، رائد (2017): رسائل الإمام علي في نهج البلاغة، دراسة حجاجية، ط1، العراق: مؤسسة علوم نهج البلاغة.
- الحباشة، صابر (2008): التداولية والحجاج، مداخل ونصوص، ط1، دمشق: دار صفحات للدراسات والنشر.
- الدريدي، سامية (2011): الحجاج في الشعر العربي، بنيته وأساليبه، ط2، الأردن: عالم الكتب الحديث.
- روبول، آن، وجاك موشلار (2020): تداولية الخطاب، من تأويل الملفوظ إلى تأويل الخطاب، ترجمة: لحسن بوتكلاي، ط1، عمان: دار كنوز.
- الريشهري، محمد (2001): ميزان الحكمة، أخلاقي، عقائدي، اجتماعي، سياسي، اقتصادي، أدبي، طبعة جديدة محققة وملونة، قم: دار الحديث، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- طه، عبد الرحمن (1993): التواصل والحجاج، ط1، الرباط: مطبعة المعارف الجديدة.
- العزاوي، أبو بكر (2006): اللغة والحجاج، ط1، مصر: العمدة في الطبع.
- عشير، عبد السلام (2006): عندما نتواصل نغير، مقاربة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج، ط1، المغرب: إفريقيا الشرق.
- علوي، حافظ إسماعيلي (2010): الحجاج: حدود وتعريفات، ط1، الأردن: عالم الكتب الحديث.
- عليوي، حافظ إسماعيلي (2010): الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، ط1، الأردن: عالم الكتب الحديث.
- القرطاجني، أبو الحسن حازم (1966): منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ط1، تونس: دار الكتب الشرقية.
- ناصر، عمارة (2009): الفلسفة والبلاغة، مقاربة حجاجية للخطاب الفلسفي، ط1، الجزائر: منشورات الاختلاف.
- وهبة، مراد (1979): المعجم الفلسفي، ط3، مصر: دار الثقافة الجديدة.